

الباب الرابع

الله كتب على نفسه الرحمة

أ. وعد الله ان يرحم عباده مؤمنين ام كافرين

فالى تعالى: "قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ" (الأنعام ٦/٥٥ : ١٢).

قد فسر ابن عباس هذه الآية بقوله: "(قُلْ) يا محمد لأهل مكة (لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) من الخلق فإن أجابوك وإلا (قُلْ لِلَّهِ) خلق السموات والأرض (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أوجعنى نفسه الرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بتأخير العذاب (لِيَجْمَعَنَّكُمْ) (والله ليجمعنكم) (إلى يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ليوم القيامة (لَا رَيْبَ فِيهِ) لاشك فيه (الذين خسروا) غبنوا (أَنْفُسَهُمْ) ومنازلهم وخدمهم وأزواجهم في الجنة (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) بمحمد والقرآن ونزل في مقاتلتهم في محمد عليه الصلاة والسلام ارجع إلى ديننا حتى نغنيك ونزوجك ونعزك ونملكك على أنفسنا^١.

قال الإمام القرطبي مفسرا على (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي وعد بها فضلا منه وكرما فلذا لك أمهل، وذكر النفس هنا عبارة عن وجود وتأكيده وعده، وارتفاع الوسائط دونه، ومعنى الكلام الاستعطف منه تعالى للمتولين عنه إلى الإقبال إليه، وإخباره منه سبحانه بأنه رحيم بعباده لا يعجل

^١ طاهر بن يعقوب الفيروز آبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م).

عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة^٢. فكأنه تعالى قال : إنه لم يرض من نفسه بأن لاينعم ولا بأن يعد بالإنعام، بل أبدأً ينعم وأبدأً يعد في المستقبل بالإنعام ومع ذلك فقد كتب على نفسه ذلك وأوجبه إيجاب الفضل والكرم. واختلفوا في المراد بهذه الرحمة فقال بعضهم : تلك الرحمة هي أنه تعالى يمهلهم مدة عمرهم ويرفع عنهم عذاب الاستئصال ولا يعالج لهم بالعقوبة في الدنيا. وقيل إن المراد أنه كتب على نفسه الرحمة لمن ترك التكذيب بالرسول وتاب وأناب وصدقهم وقبل شريعتهم^٣.

وقال الإمام السعدي (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتديره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم^٤. فالله الذي برأ السموات والأرض، وله كل ما فيهما لا نعلم عنه إلا القليل وكالدرة بالنسبة للجبال الشم، وقد كتب على نفسه، وقوله (على نفسه) لتأكيد الوعد وتحقيقه. أوجب الرحمة على عباده، إذ هو الرحمن الرحيم^٥.

^٢ القرطبي، المرجع السابق، مج ٣، ج ٦، ص ٣٠٦.

^٣ محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين عمر المشتهر بخطيب الري، تفسير فخر الرازي المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب، (بيروت : دار الفكر، ١٤٢٥هـ / ١٩٩٥م)، مج ٦، ص ١٧٤.

^٤ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي، تفسير السعدي تيسير الكريم الرحمن في تفسير المنان، (بيروت : دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، ج ٢، ص ١١.

^٥ محمد محمود حجازي، تفسير الواضح، (بيروت : دار الجيل ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م)، ط ١٠، ج ١، ص ٥٩٣.

في آية أخرى يقول تعالى : "إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (الانعام ٥٥/٦ : ٥٤) قال الألوسي : العلم والعمل ، وتأخير هذا الوصف مع أنه كالمنشأ للوصف السابق لما أن مدار الوعد بالرحمة هو الإيمان كما أن مناط النهي عن الطرد فيما سبق هو المداومة على العبادة ، وتقدم في رواية ابن المنذر عن عكرمة ما يشير إلى أنها نزلت في عمر رضي الله تعالى عنه ، وروي ذلك أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . وأمر صيغة الجمع على هذا ظاهر . وأخرج عبد بن حميد ومسدد في «مسنده» وابن جرير وآخرون عن ماهان قال : أتى قوم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا أصبنا ذنوباً عظاماً فما رد عليه الصلاة والسلام عليهم شيئاً فانصرفوا فأنزل الله تعالى الآية فدعاهم صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم . وروي عن أنس مثل ذلك ، وقيل : لم تنزل في قوم بأعيانهم بل هي محمولة على إطلاقها واختاره الإمام . والمشهور الأول وسياق الآية يرجح ما روي عن ماهان ، (فُقِّلَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ) أمر منه تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أن يبدأهم بالسلام في محل لا ابتداء به فيه إكراماً لهم بخصوصهم كما روى عن عكرمة واختاره الجبائي ، وقيل : أمره سبحانه أن يبلغهم تحيته عز شأنه وروي ذلك عن الحسن وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : إن المعنى إقبل عذرهم واعترفهم وبشرهم بالسلامة مما اعتذروا منه . وعليه لا يكون السلام بمعنى التحية . وهو أيضاً مبني على سبب النزول عنده رضي الله تعالى عنه ، واختار بعضهم أنه بهذا المعنى أيضاً على تقدير أن يراد بالموصول ما روي عن عكرمة فيكون الكلام أمراً له عليه الصلاة والسلام أن يبشرهم بالسلام من كل مكروه بعد إنذار مقابلتهم ، وقوله تعالى : (كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أي أوجبها على ذاته المقدسة تفضلاً وإحساناً بالذات لا بتوسط شيء (ما) أصلاً وفيه احتمال آخر تقدم تبشير لهم بسعة رحمة الله تعالى . ولم يعطف على جملة السلام مع أنه محكي بالقول أيضاً قيل لأنها دعائية إنشائية ، وقيل : إشارة إلى استقلال كل من مضموني الجملتين وهما السلامة من المكروه ونيل المطالب بالبشارة . وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم إظهار للطف بهم وإشعار بعلّة الحكم^٦ .

فهذه الآية المذكورة والشروح من المفسرين بينت لنا بان الله جل وعلى له رحمة كتب على نفسه

الرحمة هذه وعد الله لعباده.

^٦ الألوسي ، المرجع السابق ، مج ٥ ، ص ٢٣٨-٢٣٩

ب. الأسباب التي تؤدي بها رحمة الله

الله تعالى أرحم الراحمين وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها فبرحمته خلقنا وبرحمته رزقنا وبرحمته عافانا وأطعمنا وسقانا وكسانا وآوانا وبرحمته هدانا للإسلام والإيمان والعمل الصالح وبرحمته علمنا ما لم نكن نعلم، وبرحمته أنزل المطر وأنبت النبات. وبرحمته يدخل عباده المؤمنين العاملين الصالحات الجنة وبرحمته ينجيهم من النار فالأشياء كلها برحمة الله. ولرحمته بخلقه أسباب كثيرة وسيأتي بيانها، وقد يتعذر على الكاتب إيراد النصوص جميعها، ولكنه حسب ما يتسع له المقام:

١. الإيمان

بين القرآن أن الإيمان له آثار في حياة الناس في دنياه وأخراه كما قال تعالى في الآيات منها : "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (النحل ١٦/٧٠ : ٩٧). ذكر ابن كثير أن هذا وعد من الله جل وعلا لمن عمل صالحا، وهو العمل المتابع لكتاب الله وسنة رسوله من ذكر أو أنثى وقلبه مؤمن بالله ورسوله، بأن يحيي حياة طيبة في الدنيا، والحياة الطيبة تشمل الراحة من أي جهة كانت^٧. فهذه الآية دلت بأن الإيمان هو السبيل إلى الحياة الآمنة السعيدة في الدنيا.

^٧ ابن كثير، المرجع السابق، مج. ٢، ص. ٥٦٦

إن من أعظم نعم الله على البشرية الإيمان، فالإيمان شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ" (إبراهيم ١٤/٧٢ : ٢٤).

وقال تعالى: "يُتَيَّبِتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ" (إبراهيم ١٤/٧٢ : ٢٧). فالثبات حاصل أهل الإيمان في الدنيا بشهادة التوحيد وفي الآخرة عند سؤال القبر، قال الألوسي عند قوله (وفي الآخرة) قال الألوسي أي بعد الموت وذلك في القبر هو أول منزل من منازل الآخرة وفي مواقف القيامة، فلا يتلعنمون إذا سألوا عن معتقدتهم ولا تدهشهم الأهوال^٨.

والإيمان اسم مشتق من الأمن، الذي ضده الخوف كما قال تعالى: "فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَدْكُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" (البقرة ٨٧/٢ : ٢٣٩)^٩.

والإيمان بتهذيبه لسلوك الإنسان وتنظيمه لحياة الجماعة، يمثل صمام أمان للمجتمع من الانزلاق في حل الانحلال والفساد، فهو ليس مجرد الإدراك الذهني أو التصديق العقل غير

^٨ الألوسي، المرجع السابق، ج. ٥، ص. ٢١٧

^٩ أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحلبي، المنهاج في شعب الإيمان، (بيروت: دار الفكر،

١٩٣٩٩/هـ ١٩٧٩م)، ج. ١، ص. ١٩.

المتبوع بأثر عملي في الحياة، بل إنه اعتقاد وعمل وإخلاص، من هنا ندرك الحكمة التي من أجلها اقترن الإيمان بالعمل الصالح في أكثر من سبعين آية في كتاب الله^{١٠}.

وبشر الله عز وجل أهل الإيمان بالرحمة في الدنيا و الآخرة بقوله: "هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا" (الأحزاب ٣٣/٩٠: ٤٣) فالمراد بالصلاة هنا الرحمة والبركة^{١١}.

"فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا" (النساء ٩٢/٤ : ١٧٥) اي : عصموا به أنفسهم مما يريد بها من زيغ الشيطان، فسيدخلهم الجنة ثم يتفضل عليهم بعد ذلك بالنظر إلى وجهه الكريم وغير ذلك من مواهبه الجليلة^{١٢}.

وفي آية أخرى ذكر تعالى أن صاحب الإيمان سيعطيه العزة قال تعالى: "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ" (المنافقون ٦٣/١٠٤ : ٨). فعزة الله وهو قهره وغلبته لأعدائه، وعزة رسوله إظهار دينه على الأديان كلها، وعزة المؤمنين نصر الله إياهم على أعدائهم^{١٣}. فالنصر من الله على الأعداء من أهم ثمار الإيمان، وكم المسلمين بحاجة

^{١٠} القرضوي، الإيمان والحياة، ص. ٤٣.

^{١١} نفس المرجع، ج. ١١، ص. ١٠٤.

^{١٢} القاسمي، المرجع السابق، مج. ٥، ص. ٦٨٨.

^{١٣} الفنونجي، المرجع السابق، ج. ١٤، ص. ١٥٢.

إليه اليوم، وهم يعيشون على أسوأ فترات زمانهم من ذل وهوان وانكسار وتبعية للأمم الأخرى.

وما من احد من الناس الذين يعيشون في الحياة الدنيا لن يتجنبوا من قضاء وقدرة الله. فبالإيمان يعيش الناس آمن القلب ساكن النفس لا يحزن على ما مضى ولا يخاف مما هو آت، كيف يكون المؤمن كذلك وهو يقرأ قول الله تعالى : "مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمَرْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (التغابن ١٠٨/٦٤ : ١١). وسبب نزول هذه الآية أن الكفار قالوا: لو كان ما عليه المسلمون حقا لصانهم الله عن المصائب في الدنيا^{١٤}.

وقال تعالى: "يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ" (الحديد ٥٧/٩٤ : ١٢). يقول تعالى محبراً عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعون نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم وعلى قدر أعمالهم يمشون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إجماله يتقد مرة ويطفأ أخرى^{١٥}.

٢. التقوى

^{١٤} نفس المرجع، ج. ١٤. ص. ١٧٠

^{١٥} ابن كثير، المرجع السابق، ج. ٤، ص. ٣٠٩

لقد عرف علي رضي الله عنه التقوى وقال : "الخوف من الجليل والعمل به بالتنزيل والرضا بالقليل واستعداد ليوم الرحيل"^{١٦}.

فالتقوى قيمة عظيمة في حياة الناس، فهي لا يرتبط بالعبادات فحسب، وإنما يدخل في كل جانب من جوانب الحياة، في جانب العبادات والمعاملات المالية والعلاقات الاجتماعية. وأما من هو أهل التقوى فقد رحمه الله قال تعالى : قال تعالى: "وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ" (الأعراف ٣٩/٧: ١٥٧).

وللتقوى ثمار كثيرة تظهر في حياة الفرد والمجتمع كما بينتها الآيات القرآنية منها :

أولاً. التقوى سبيل إلى حياة آمنة مطمئنة : "فَمَنْ آتَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (الأعراف ٣٩/٧: ٣٥).

ثانياً. التقوى سبب لمعينة الله وتأيدته : "وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ" (البقرة ٨٧/٢ : ١٩٤).

ثالثاً. التقوى تؤدي إلى الجنة : "وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ" (آل عمران ٨٩/٣ : ١٣٣).

^{١٦} طه عبد الله العفيفي ، من وصايا الرسول صلى الله عليه وسلم، (القاهرة : دار التراث العربي، ١٣٠١/

رابعاً. التقوي سبب في الخروج من الأزمات والشدائد، وسبب في زيادة الرزق : "وَمَنْ

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ" (الطلاق ٩٩/٦٥ :

.٣-٢

خامساً. التقوي سبب في تكفير الذنوب : "وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ

لَهُ أَجْرًا" (الطلاق ٩٩/٦٥ : ٥).

٣. الإحسان

الإحسان في عبادة الله في إكمالها وإتقانها ومراقبة الله فيها بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم

تكن تراه فإنه يراك، والإحسان إلى الناس بما تستطيع بالقول والفعل والمال والجاه قال

تعالى: "إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" (الأعراف ٣٩/٧ : ٥٦).

٤. قيام الليل

قيام الليل من أعظم القربات عند الله وأحبها إليه لأن الله أمر نبيه صلى الله عليه وسلم،

مبيناً أنه أحد أسباب المقام المحمود قال تعالى : "وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ

يَبْعَثَ لَكِ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا" (الإسراء ١٧/٥٤ : ٧٩). وهو دأب الصالحين وتجارة المؤمنين

وعمل الفائزين، ففي الليل يخلو المؤمنون بربه جل وعلا ويتوجه إليه يشكر حاله ويسأل

حوادثه، فعن النبي صلى الله عليه وسلم: عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم

وهو قرينة إلى ربكم ومكفرة للسيئات ومنهاة للإثم^{١٧}.

^{١٧} الترمذي، المرجع السابق، كتاب الدعوات، باب من دعاء النبي، ج ٥، ص ٣٢٣ قال الترمذي حديث

ومدح الله لمن أقام في الليل للعبادة وذكر أن قيام الليل من صفات عباد الرحمن المخلصين قال تعالى : "أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" (الزمر ٣٩/٥٩ : ٩).

٥. الصبر على الشدائد

فالإنسان ينتقل من بلاء إلى بلاء ومن امتحان إلى امتحان إلى آخره، ومن فتنة إلى أخرى قال تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ" (البلد ٣٥/٩٠ : ٤). الإبتلاء و المحن والشدائد سنة من سنن الله عز وجل في خلقه قال تعالى : " أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ" (الأنكبوت ٢٩/٨٥ : ٢).

لذلك فلا بد لمن أراد الفوز في الدنيا والآخرة أن يتسلح بسلاح الصبر والثبات على المحن، وعدم الجزع والحزن والإعتراض على قدر الله جل وعلا.

فالصبر يرتبط إرتباطا وثيقا بنول الرحمات، فكلما نزل البلاء واشتدت المحن، فصبر الإنسان وتجلده، كلما كان ذلك أدهى إلى نزول رحمت الله وعونه وتأيبه : "وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ" (البقرة ١/٨٧ : ١٥٥-١٥٧). يقول رشيد رضا في هذه الآية :
وأما رحمة الله فهي ما يكون لهم في نفس المصيبة من حسن العزاء وبرد الرضى وتسليم

للقضاء، فهي رحمة خاصة يجسد الملحدون عليها المؤمنين، فإن الكافر المحروم من هذه الرحمة في المصيبة تضيق عليه الدنيا بما رحبت حتى أنه ليجخل نفسه إذالم يعد له رجاء في الأسباب التي يعرفها ويتنحر بيده من الهالكين^{١٨}.

٦. إصلاح ذات البين

إن من تمام نعم الله التي أسبغ على عباده المؤمنين، أن جعلهم أمة واحدة متراحمة متعاطفة كأنها جسد واحد: "وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْقَضْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (الأنفال ٨/٨٨ : ٦٣) ويقول صلى الله عليه وسلم "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى"^{١٩}.

الإسلام حرص على وحدة المسلمين وأكد على أخوتهم وأن صلاح ذات البين عاقبته الرحمة. "إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الحجرات ١٠٦/٥٠ : ٩)

^{١٨} رشيد رضا، المرجع السابق، ج. ٢، ص. ٤١

^{١٩} ، الترمذي، المرجع السابق، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب صلاح ذات البين، ج. ٢، ص. ٦٣٩، قال الترمذي : حديث صحيح، ومسلم، المرجع السابق، كتاب البر والصلة والأدب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ج. ٤، ص.

ويعلق سيد قطب على الآيات مبينا أنها جاءت كقاعدة تشريعية عملية لصناية المجتمع المؤمن من الخصام والتفكك والإنذفاعات، تأتي تعقيبا على تبين خبر الفاسق وعدم العجلة والإنذفاع وراء الحمية والحماسة، قبل التثبت والإستيقان.

ثم تحدث سيد عن الأخوة الإيمانية بين المسلمين ذاكرا أنه ومما يترتب على هذه الأخوة أن يكون الحب والسلام والتعاون والوحدة وهي الأصل في الجماعة المسلمة، وأن يكون الخلاف والفرقة هو طرف استثنائي لا يدوم^{٢٠}.

٧. ومن أسباب الرحمة: الهجرة في سبيل الله

لقد كانت الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة من أهم المفاصل في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما كان لها من آثار عظيمة ليس من عصر النبي صلى الله عليه وسلم فقط وإنما لكل عصر من عصور الدعوة حيث إن الحياة التي أنشأها النبي صلى الله عليه وسلم قامت على أساس المساواة والعدل والرحمة والإحسان إلى كل الأمم والشعوب، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم لا يحدها زمان ولا مكان، فهو الذي أرسله رحمة بالعالمين.

والهجرة لم تكن إنتقالا بدنيا أو ماديا فحسب، وإنما كانت انتقالا بالنفوس من حال إلى حال، من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن العزلة إلى الحركة، ولذلك ما احوج المسلمون اليوم إلى مثل هذه الهجرة التي تكون في سبيل الله، لكن المقصود ليس

^{٢٠} سيد قطب، المرجع السابق، ج. ٦ ، ص. ٣٣٤٣

هجرة من وطن إلى وطن، وإنما الهجرة من الحرام إلى الحلال، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الفرقة إلى الجماعة، ومن الذلة إلى العزة والكرامة، فإذا فعل المسلمون هذه الخطوة، فقد سلكوا طريق الرحمة والعزة والتمكين.

ولما تحمله الهجرة من معان سليمة في تربية النفوس، فقد عنى القرآن بهذا الأمر عناية كبيرة حتى جاء الحديث عن هذا الأمر في كتاب الله أكثر من عشرين مرة.

ومن أجل ما قرأت في هذا الموضوع ما لخصه سيد قطب وهو يتحدث عن قوله تعالى :
 "وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يُخْرِجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا" (النساء ٩٢/٤ : ١٠٠). مبينا أن المنهج الرباني القرآني يعالج في هذه الآية مخاوف النفس المتنوعة؛ وهي تواجه مخاطر الهجرة؛ فهو يحدد أن هذه الهجرة في سبيل الله في سبيل الشهوات والملذات، ليست هجرة من النجاة والمتاعب، ولا لأي غرض من أغراض الدنيا، فمن كانت نيته يجد في الأرض فسحة ومنطلقا فلا تضيق به الأرض، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة، صم يمضي بقوله : ومع ضمان هذا الأجر، كان التلويح بالمغفرة للذنوب والرحمة في الحساب (وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا)، ومن تقاعس عن مثل هذا الخروج فلا أجر ولا مغفرة ولا رحمة، وشتان ما بين صقفة وأخرى^{٢١}.

٨. الجهاد في سبيل الله

^{٢١} سيد قطب، المرجع السابق، مج ٢، ص. ٧٤٥.

من أوصاف المادحة للمؤمنين وهي الجهاد في سبيل الله، فالله سبحانه وتعالى ذكر كلمة "جهاد" بعد الإيمان والهجرة، هذه تدل على أن الجهاد من أمر مهم في الإسلام وهو سبب نزول رحمة الله كما قال تعالى: "الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ" (البقرة ١/٨٧ : ٢١٨).

أما الجهاد فلم تكن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة على معرفة العقائد والعبادات المقربة إليه، والجالبة لحبه ورضاه، وإنما كان الجهاد ركنا من أركان هذا الدين، وأحب الأعمال إلى الله.

٩. ومن أسباب الرحمة: الدعاء

الدعاء في الأصل مصدر من قولك : دعوت الشيء أدعوه دعاء، وهو أن تميل الشيء إليك بصوت أو كلام يكون منك^{٢٢}. وحقيقة الدعاء : إظهار الإفتقار إلى الله تعالى و التبرؤ من الحول والقوة، وهذا لب العبودية لله تعالى.

فقد أمر تعالى بالدعاء وتكفل بالإجابة وهو سبحانه لا يخلف الميعاد "وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ" (المؤمن ٤٠/٦٠ : ٦٠) .

إن المسلم لتشرئب نفسه إلى رحمة من الله بما قلبه وتسكن بها نفسه، ويعتصم بمجبل الله المتين "رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا" (الكهف ١٨/٦٩ : ١٠)

^{٢٢} أنظر : ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، مادة (دعو)، ج. ٢، ص. ٢٧٩

لذلك فالدعاء من أهم المؤهلات إلى رحمة الله وكرامه وعطائه، فكلما رفع الإنسان يديه سائلاً المولى حوائجه، كلما كان ذلك إعترافاً منه بالضعيف والعجز، فكان ذلك أولى بنزول رحمة الله عز وجل.

وللدعاء مكانة عظيمة في الإسلام أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: "الدعاء هو العبادة"^{٢٣}. قال الشوكاني: "إن الدعاء لما كان هو العبادة، وكان مخ العبادة كما تقدم، كان أكرم على الله من الحيثية، لأن العبادة هي التي خلق الله الخلق لها"^{٢٤}.

فكم من رحمة ظاهرة أو باطنة كانت بسبب الرحمة، ألا ترى أصحاب الكهف فروا بدينهم من القهر والظلم، ولجأوا إلى الله بالدعاء كما قال تعالى: "إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا" (الكهف/١٨: ٦٩: ١٠) فاستجاب الله لهم وأنزل عليهم رحماته: "فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا" (الكهف/١٨: ٦٩: ١٦).

ألا ترى أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في أحلك الظروف وأصعبها لجأوا إلى الله بالدعاء، حتى تنزلت عليهم الرحمة "إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ" (الأنفال/٨: ٨٨: ٩)

^{٢٣} الترمذي، المرجع السابق، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ومن سورة البقرة، (بيروت

: دار الفكر، ١٩٨٨/هـ ١٤٠٩، مج ٤، ص ٥٢٠.

^{٢٤} محمد بن علي الشوكاني، تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين، (بيروت: مؤسسة الكتب

الثقافية، ١٩٨٨/هـ ١٤٠٨)، ط ١، ص ٢٨.

وكما أن الدعاء سبيل إلى رحمة الله عز وجل لحديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من فتح باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة^{٢٥}.

١٠. الأمر بالمعروف والنهي عى المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو من القطب الأعظم في الدين والمهم الذي إبتعث الله له النبيين أجمعين، فلو طوى بساطه وأهمل علمه وعمله لتفشيت الضلالة وعمت الجهالة، وخرجت البلاد، وهلك العباد، وكثرت الفساد، فهو سبيل الفلاح قي الدنيا والآخرة، قال تعالى: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران ١٠٤: ٢٦).

فمن حمل اللواء حاز على شرف الخيرية من الله عز وجل: "وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (آل عمران ١٠٤: ٢٦)، فكان ذلك سببا في نجاته من عذاب الله يوم القيامة: "فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَجْبَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَدَابِ بَيْتِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ" (الأعراف ٣٩/٧: ١٦٥).

^{٢٥} الترمذي، المرجع السابق، كتاب الدعوات، باب في الدعاء النبي، ج. ٥، ص. ١٦٦.

^{٢٦} القاسمي، محمد جمال الدين الدمشقي، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الفكر،

أما من أخلاق المؤمنين وصفاتهم فأهمهم : "وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ" (التوبة ١١٣/٩ : ٧١)، فبذلك استحقوا رحمة الله سبحانه وتعالى : "أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ" (التوبة ١١٣/٩ : ٧١).

١١. ومن أسباب الرحمة اتباع القرآن الكريم والعمل به

فقراءة القرآن سبب من أسباب الرحمة: "وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأعراف ٣٩/٧ : ٢٠٤).

لقد امتن الله على عباده أن ارسل إليهم النبي الأمي محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل معه القرآن "أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (الأنعام ٥٥/٦ : ١٢٢) قال ابن كثير: هذا مثل ضرب الله لمؤمن كان حائرا هالكا في الضلالة، فبعث الله في قلبه الإيمان ووقفه لإتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وجعل له ما يستدل به في الطريق وهو القرآن^{٢٧}.

إنه كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو حبل الله المتين وصراطه المستقيم، وهو الضياء والنور، من تمسك نجا ورحم، ومن تنكبه هلك، فهو الشفاء للصدور والرحمة للقلوب^{٢٨}.

^{٢٧} انظر ابن كثير، المرجع السابق، مج ٢، ص. ١٨٣

^{٢٨} القاسمي، المرجع السابق، ص. ٤٥

ولذلك من الواجب على المسلم أن يجعل هذا القرآن دستوراً له في حياته، فيحل حلاله ويحرم حرامه، ويعمل بأوامره ويحتمل نواهيه، حتى يكون سبباً في رحمته. قال تعالى: "وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (الأنعام ٥٥/٦ : ١٥٥).

وقراءة القرآن لا تنحصر بتلاوت الألفاظ و السطور، وإنما بالتدبر والتفكير في المعاني والآيات، يقول الشهيد سيد قطب على هذه الآية : "إن العكوف على هذا القرآن في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة و التزم، لينشئ في القلب و العقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية و الإنطلاق، ومن الإيجابية والعزم والتصميم ما لا تدانيه رضاية الخرى أو معرفة أو تجريب، وهذا كله أرجى إلى الرحمة^{٢٩}.

١٢. ومن أسباب الرحمة طاعة الله ورسوله

أمر جل وعلا المؤمنين بالاستجابة لله و لرسوله، مبينا أن هذه الطاعة هي الطريق إلى الحياة الحقيقية، حياة العز والصلاح والرشاد لأنه يدعو إلى الحق والإيمان : "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ" (الأنفال ٨٨/٩ : ٢٤).

قال تعالى: "وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (آل عمران ٢ / ٨٩ : ١٣٢).

^{٢٩} سيد قطب، في ظلال القرآن، مج ٣، ص. ١٤٢٦.

ولقد أخبر القرآن الكريم أن الطاعة لله ولرسوله سبب الرحمة من الله جل وعلا، فمن أطاع الله والرسول فهو من أهل الرحمة.
 إذا فالطاعة من أهم اسباب نزول الرحمة إذا كان الإنسان مستعدا لهذه الرحمة.

١٣. ومن أسباب الرحمة الاستغفار وطلب المغفرة

الاستغفار هو طلب المغفرة، وهي الشيء الزائد على الستر، فمعناه الوقاية من شر الذنب بحيث لا يعاقب عليه العبد، فمن غفر ذنبه لم يعاقب، وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عواقب الذنب باطنا وظاهرا فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنوب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب^{٣٠}.

وللإستغفار أهمية عظيمة في الإسلام لما له من آثار طيبة في حياة الإنسان في الدنيا والآخرة. فالإستغفار باب واسع وسبب رئيس من أسباب الرحمة الإلهية، قال تعالى :
 "لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" (النمل ٢٧/٤٨ : ٤٦) أي : "هلا تتوبون إلى الله من كفركم فيغفرلكم ربكم عظيم جرمكم يصفح لكم عن عقوبته إياكم على ما قد أتيتم من عظيم الخطيئة، وقوله : "لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ" يقول : ليرحمكم بإستغفاركم^{٣١}.

^{٣٠} تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی، الفتاوى الكبرى، (بيروت : دار الكتب العلمية،

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م)، ط ١، مج ٥، ص. ٢٧٥.

^{٣١} الطبري، المرجع السابق، ج. ١٨، ص. ٨٧.

١٤ . ومن أسباب رحمة الله بعبده: رحمة مخلوقاته من الأدميين والبهائم

قال: "الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ" ٣٢ ويتأكد

ذلك في حق الفقراء والمساكين والمحتاجين والجزاء من جنس العمل فكما تدين تदान.

ج. الرسول صلى الله عليه وسلم هو المثل الأعلى والقدوة الحسنة لمن يرحم الناس وينال رحمة

الله

إن من تمام رحمة الله بعباده، أن أرسل إليهم الرسل والأنبياء، ليكشفوا الناس طريق الحق

والخير، وليبددوا منها ظلمات الشر والضلال، وليقيموا الحججة على الناس يوم القيامة: "مَنْ اهْتَدَى

فَأَتَمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَأَتَمَّا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ

رَسُولًا" (الإسراء ١٧/٥٤: ١٥).

ولقد كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، فعيسى وموسى عليهما السلام، بعثا إلى بني

إسرائيل، فكانت دعوتهم بركات ورحمة على أقوامهم في زمانهم ومكانهم، أما الرسول محمد صلى الله

عليه وسلم فلقد بعثه الله للناس كافة إلى قيام الساعة مهما اختلفت أجناسهم وألوانهم وأعراقهم فقال

تعالى: "قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا

٣٢ الترمذي، المرجع السابق، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، ج. ٤، ص. ٣٢٣، ونظر سليمان

بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب في الرحمة، بصيغة أخرى، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)،

ط. ١، ج. ٤، ص. ٣٤٥.

هُوَ يُخَيِّبُ وَيُؤَيِّسُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ"
(الأعراف ٣٩/٧ : ١٥٨).

لقد كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم رحمة عامة لأنها أهدت للبشرية جملة من الحقائق التي يفتقرون إلى معرفتها، فوفرت عليهم عناء التيه في دروب من الباطل لا حصر لها فهي لم تدع الباطل يفسد على الناس عقائدهم وأعمالهم، سواء في المجال السياسي أو النفسي أو الاجتماعي، كما أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم جاءت في أعقاب ديانات ونبوات أعطب الشيطان ثمارها، فأصابها ما أصابها من التحريف والتزوير والتبديل، إلا أن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت كلمة الأخيرة إلى الإنسانية جمعاء إلى يوم القيامة، لذلك كان لها من الضمانات ما يمنع العوج وبقي الإنحراف، وتستفيد من الماضي، لتصون مستقبل الإنسانية الطويلة قال تعالى : "تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَليَهُمُ الْيَوْمَ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" (النحل ١٦/٧٠ :

٦٣ - ٦٤) ٣٣.

إن الناس قبيل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كانوا احد صنفين، إما كافر ينكر الألوهية أو مؤمن معتل الفكر في تصوره لقضية الألوهية، وعلا مة الإنسان بربه، فجاءت البعثة المحمدية إنقاذاً من هذ الإلحاد لأنها عرفت الإنسان بالله على أصدق وجه وأقوى دليل ٣٤.

٣٣ محمد الغزالي، ركائز الإيمان بين العقل والقلب، (القاهرة : دار الشروق، ٢٠٠١)، ص ٢٠١.

٣٤ نفس المرجع، ص ٢٠٢.

إن المرء ليقف حائرا عند الحديث عن رحمة انبي صلي الله عليه وسلم حيث كانت بعثة النبي رحمة ودعوته رحمة، وكان صفته رحمة ونطقه رحمة وسيرته كلها رحمة ، بل إن رحمته شملت البشر والحجر والشجر، وصدق الله حيث قال : "وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ" (الأنبياء ٧٣/٢١):

(١٠٧)

إن من أوائل آيات الرحمة، أنه صلى الله عليه وسلم جاء أمرا بالمعروف وناهيا عن المنكر جاء ليحرم الخبائث ويحل الطيبات، جاء صلى الله عليه وسلم ليضع الأغلال والآصار كانت على الأمم السابقة : "يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ" (الأعراف ٣٩/٧: ١٥٧).

هذه المبادئ والقيم التي أعلنها جعفر بن أبي طالب أمام ملك الحبشة عندما قال : كنا قوم أهل جاهلية، ونعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأني الفواحش ونقطع الأرحام، ونسيئ الجوار، ويأكل منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله لنا رسولا منا، عرفنا نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله ونوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوصان وأمرنا بصدق الكلام وأداء الأمانة وصللة الرحم، ونهانا عن الفواحش^{٣٥}.

لقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا على هداية الناس كافة، هذه هي الرحمة التي حملته على أن يمتثل من أجلها أشد أنواع العذاب والسخرية والإستهزاء، هذه هي الرحمة التي جعلته

^{٣٥} أبو محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، (بيروت : دار الصحابة للتراث بطنطا، دت)، ط ١، مج ١، ص

يكافح في دعواته من غير ملل ولا فتور حتى كان يشق على نفسه في سبيل ذلك فأنزل الله بذلك آيات من التسليية والمواساة : "فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا الكهق ٦، فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ" (فاطر ٥٣/٤٣ : ٨) .

لقد آذاه قومه أشد الإيذاء، وحاكوا ضده كل مكر وخديعة وسخرية، ووضعوا الأشواك والأوساخ في طريقته، وحاولوا أن يقتلوه وأن يخنعوه، ووضعوا سلا الجزور على رأسه وهو يصلي، إن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذهب أن يدعو أهل الطائف إلى دين الله، وأغروا به سفهاءهم حتى رجموا بالحجارة، وسالت الدماء الطاهرة من قدميه صلى الله عليه وسلم، ولما عرض عليه ملك الجبال أن يخسف بهم الأرض وأن يطبق عليهم الجبال أبي وقال : بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً^{٣٦} .

وعندما طلب منه صلى الله عليه وسلم أن يدعو على المشركين رفض صلى الله عليه وسلم وقال : إني لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة^{٣٧} .

وأما رحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين من أمته، فقد قام كل عقل وتصبور، كان أرحم بهم من أنفسهم، ومن آبائهم وأمهاتهم اللائي ولدنهم، فكان صلى الله عليه وسلم يتعهد الحاضر منهم ويسأل عن الغائب، كان يشيع الميت، ويزور المريض، كان يشمت العاطش، ويعين الضعيف

^{٣٦} مسلم، المرجع السابق، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، ج

٣، ص ١٤٢١ .

^{٣٧} مسلم، المرجع السابق، كتاب البر والصلوة، باب النهي عن لعن الدواب وغيرها، ج ٤، ص ٢٠٠٧ .

ويجالس الفقراء، ويلعب الأطفال، ويمزح العجائز، فكان صلى الله عليه وسلم لأُمَّته بمثابة الأب الحاني لأُمَّته، فكان صلى الله عليه وسلم كما قال جل وعلا في شأنه.

"لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ" (التوبة ١١٣/٩ : ١٢٨).

بل أن رحمته صلى الله عليه وسلم امتدت لتشمل الحيوان، فقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليحد أحدكم شفرته ، فليرح ذبيحته"^{٣٨}.

وأنكر النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه الذين أخذوا فراخ بعض الطيور، وعد ذلك قبيحة للأم بأولادها فقال لهم حاثا إياهم إرجاعها : من فجع هذه بولدها^{٣٩} .

هكذا رحمة النبي صلى الله عليه وسلم فهو يرحم المؤمنين كلهم حتى الأعداء والبهائم. فلذلك على المسلمين أن يقتدوا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم بتطبيق الرحمة في هذه الحياة، لكي ينالوا رحمة الله العامة ولاسيما رحمة الله الخاصة، فمن يقتدى النبي صلى الله عليه وسلم سلم نجا في الدنيا وسعد في الآخرة، والله اعلم بالصواب.

^{٣٨} أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم فأحسنوا، (بيروت : دار الفكر ١٤١٥هـ/١٩٩٥)، د ط.
مج ٢، ج ٢، ص ٢٥١.

^{٣٩} أبو داود، المرجع السابق، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، ج ٢، ص ٤٠٦.